جسيكا ليند

شياطين صغار

رواية

ضياع طفل. حين لا ينتبه
أحدهم للحظة في السوبرماركت،
فيختبئ الطفل بين رفوف
المعكرونة وأكياس الحساء. هكذا
يبدو الأمر. ثم يُنادى عليه عبر
مكبر الصوت، تصحبه معك،
تطعمه العشاء، تنظف له أسنانه
وتغطيه ليلًا. لكن هناك شعور
غريب.يخالجك، إحساس بعدم
الارتياح، كأنك قد أخذت الطفل
الخطأ معك إلى المنزل

1

عندما وصلت بالسيارة، كان ياكوب ينتظر بالفعل أمام مبنى المدرسة. دراجته مستندة إلى السور. فقد أتيت من العمل، بينما جاء هو من البيت.

أجيب عندما يسألني عمّا قالته المعلمة على الهاتف: "لم أعد أعلم أنا أيضًا"، وأدرك كم أنا منفعلة. أشعر بيده على ظهري وأضطر للابتعاد عنه. إنه يقصد الخير. لكنني كنت دائمًا هكذا: في حالة الشك، من الأفضل ألا يلمسني أحد. نلتقي بالسيدة "بوهله" عند غرفة المعلمين، ونسير خلفها إلى صفّ خالٍ. الطاولات مرتبة على شكل القوس. تشير إلينا السيدة "بوهله" بالجلوس. يتردد ياكوب، فالكراسي بحجم الأطفال. أجلس أنا على إحدى الطاولات وأعقد ذراعيّ أمام صدري. تختم السيدة "بوهله" تقريرها بعبارة: "تقول أن ذلك حدث أكثر من مرة." ثم تجلس خلف مكتب المعلم، بينما نجلس نحن في مواجهتها.

سألتها: "هل هناك شهود؟"

فكررت السيدة بوهله كلامي، وقد عقدت حاجبيها: "شهود؟"

"هل رآها أحد أثناء ذلك."

هزت السيدة بوهله رأسها بالنفي وقالت: "كان ذلك وقت الاستراحة الطويلة. وكان الأطفال الآخرون في الفناء، بينما هما الاثنان وحدهما في الفصل."

طغى الغضب على صوتي وأنا أسأل: "أليس من واجبك الانتباه على الأطفال؟"

حدقت في السيدة بوهله.

فحاول ياكوب تهدئة الموقف وقال: "نحن لا نعرف على الإطلاق بعد ما حدث بالفعل."

قالت السيدة بوهله: "أنتِ لا تصدقيني؟ لا تختلق الفتيات أمرًا كهذا ببساطة."

"لا، أنا لم..."

"نحن في المدرسة نأخذ الواقعة على محمل الجد. حتى وإن كان المألوف بالنسبة للأطفال في هذا السن أن يجربوا ويتجاوزوا الحدود."

قال ياكوب: "نحن أيضًا نأخذ المسألة على محمل الجد."

أخذت السيدة بوهله نفسًا عميقًا وسألت: "ربما يكون لوكا قد رأى شيئًا تسبب في اختلاط الأمر عليه؟"

شعرت بالحنق يتصاعد داخلي وقلت بجفاء: "نحن نغلق الباب عندما ننام معًا."

همس ياكوب: "بيا."

"هل ينفرد به بعض الكبار أحيانًا؟ عم على سبيل المثال أو أحد الجيران؟"

يقول ياكوب: "لا."

قلت: "إنه يبقى معك وحده أحيانًا، أنت أيضًا رجل."

نظر إلي ياكوب مصدومًا.

ثم وجه سؤاله للسيدة بوهله: "هل يمكننا التحدث إلى الطفلين؟ التحدث مع الفتاة؟"

هزت رأسها بالنفي فقد تحدثت هي بنفسها معها وكذلك فعلت إحدى المسئولات التربويات بالمدرسة . وهما يصدقان روايتها. طبعًا يصدقانها.

سأل ياكوب: "وماذا قال لوكا؟"

أستطيع أن أتخيل أن لوكا لم يقل شيئًا. وأتخيل كيف أطبق شفتيه ولم يفتح فاه. فأحكم غلقه وألقى المفتاح.

قالت السيدة بوهله: "لم يقل شيئًا حتى الآن،" ثم أضافت أنها لم تفسر بطريقة آلية صمته هذا على أنه اعتراف بالذنب، فهي تعرف طبيعته. يصبح صوتها أكثر رقة. الصمت من البداية إلى النهاية. لوهلة عادت مدرسة لوكا الودودة.

إلا أنها لم تخدعني بذلك، فاستندت بظهري إلى الخلف دون أن أرد لها ابتسامتها. يحق للمتهم أن يلتزم الصمت.

انحنيت على ركبتي لأدع لوكا يركض نحوي ويرتمي بين ذراعي كما أفعل عادة عندما أمر لاصطحابه. سرعان ما سيكبر على ذلك ويشعر بالإحراج. ولكنه اليوم ارتمى بين ذراعي فاحتضنته.

كانت سكرتيرة المدرسة تعتني به أثناء حديثنا مع المعلمة. وعند خروجي، أومأت لها برأسي.

ركبنا السيارة. حيث جلس ياكوب في المقعد الخلفي، وأنا في المقعد الأمامي. لوكا وحده هو الذي جلس بمكانه المعتاد. مشهد غريب، كما لو أن سيارتنا الفورد القديمة سيارة هروب، ينتظر فيها لصوص البنك عودة السائق. أي أننا ننتظر شخصًا يعرف إلى أين نذهب. نكس لوكا رأسه إلى الأسفل، وضم كتفيه. سألته: "ماذا حدث بالضبط؟".

بدأ لوكا يعض شفته السفلية. حدثته بتلك النبرة المرحة التي أستخدمها عادةً معه. لكن بشيء من التكلّف: "فلتقل الآن هيا".

فهمس لوكا بصوت شبه غير مسموع: "لا شيء.".

"لكننا لم نأتِ لنصحبك من المدرسة من أجل لا شيء. فقد قالت السيدة بوهله"...

وضع ياكوب يده على كتف لوكا. بدت هذه الحركة بمثابة المواساة، لكنها أثارت غضبي. إذ ينبغي أن يعترينا جميعًا الغضب.

اقترح ياكوب قائلاً: "لنذهب إلى حديقة هامّر، هل نلتقي هناك؟" .

أومأت برأسي. ونزلنا من السيارة. فك ياكوب قفل دراجته. هو من النوع الذي لا ينسى أبدًا قفل دراجته، ولهذا لم تُسرق منه قط. أسرعت للجلوس محل السائق لأركب مجددًا. حيث تشكل السيارة ملاذًا آمنًا. شغّلت المحرك وانطلقت.

"ماما، هل أنتِ غاضبة ؟"

"لا أعلم بعد".

تلاقت نظراتنا في المرآة الخلفية قبل أن أضغط فجأة على المكابح.

"اللعنة!"

شعر لوكا بضيق نفس فلهث، لأن حزام الأمام قد ضغط على صدره.

كدت أن أتجاوز إشارة حمراء.

نخوض في بحر من أوراق الأشجار الصفراء والحمراء والبرتقالية. لتختفي أحذيتنا تحتها. أرفع نظري، لأرى أن أوراق الأشجار لا تزال كثيفة. تيجان الأشجار مليئة، زاهية، نابضة بالألوان. والضوء الذهبي لخريف دافئ، مع نَفَس بارد يُنبئ بحلول الشتاء. نريد خلع

المعاطف في الشمس، بينما نرغب بوضع قبعة في الظل. مررنا على البركة حيث يسبح البط. ركض لوكا إلى الملعب، وتسلق المجسّم الشبيه بكرة عنكبوتية حتى القمة.

بقينا أنا وياكوب على أطراف صندوق الرمل الكبير، أيدينا في جيوبنا، صامتين. كان اليوم غير عادي تمامًا. توقف لوكا عن محاولة توقع ما سيحدث. نفض عن نفسه قلقه، رغم أنه كان يلتفت أحيانًا إلى الوراء بنظرات حذرة.

قلت: "اللعنة." همست بها رغم أن الملعب كاد أن يكون خاويًا وليس به سوانا. بجانبه كانت منطقة الأطفال الصغار، حيث المزيد من الأمهات، وأبٌ واحد، أما هنا، فنحن وحدنا. التفت نحو ياكوب.

عضّ ياكوب شفته السفلى. حين يفعل ذلك، يشبه لوكا تمامًا. يؤلمه أن يقول الجميع إن لوكا نسخة من أمه: شعره الأشقر، عيناه الرماديتان، بشرته الفاتحة. لكنهما يتشاركان تعابير الوجه والحركات. مع فارق أن عضّ ياكوب لشفته يعني عادةً أن أمرًا مزعجًا قادم.

"قالت السيدة بوهله إن الأطفال لا يفعلون مثل هذه الأمور دون سبب." نظر إليّ من الأسفل، لا أعلم كيف يفعل ذلك وهو أطول مني.
سأل قائلاً: "ما الذي قد يكون السبب؟" حيث أقلقته تلميحات المعلمة.

لوّحت بيدي كأنني أصدّ الفكرة. "نحن لا نعلم بعد إن كان قد حصل أصلًا. فتاة قالت شيئًا، ليعتري القلق الجميع."
"هل تعتقدين أنها اختلقت الأمر؟
نعم – أعتقد ذلك. أو بعد إعادة التفكير هل أعتقد ذلك فعلًا؟
يجب تصديق النساء – دون شرط أو قيد. الكثير للغاية منهن لا يتجرأن على التحدث خوفًا من أن ألا يُصدقهن أحد. لذا، نصدقهن، دائمًا. تلك هي قناعتي. أتذكر أصابع لوكا الصغيرة، كيف كان يحتاج كلتا يديه ليمسك بإصبعي عندما كان رضيعًا.
قلت: "يجب أن يخبرنا بما حدث. من وجهة نظره. أريد أن أسمعه منه" تنهد ياكوب. عندما يُفزع لوكا يصبح ساكنًا تمامًا. وحين نصرخ بالسباب، ينكمش كتفاه وينزل بنظراته إلى الأرض. مثل حلزون ينسحب إلى قوقعته. حتى إن عاقبناه ظلمًا، لا يدافع عن نفسه.
لذلك صرنا حذرين.
سألته: "ألم تقرأ ياسبر يول؟" ضحك ياكوب.

"كان ذلك قبل مئة عام، يا بيا. أنتِ من طلب مني أن أتوقف عن كتب نصائح التربية لأنكِ قلتِ إنها تفسد حدسكِ".
قلت: "لكني الآن لا أملك حدسًا»،
نظرنا في نفس الوقت نحو لوكا. كان يتأرجح ممسكًا بالحبال، مثل قرد صغير. وشعره الأشقر يتدلى لأسفل. تراودني تلك الأفكار منذ ولادته. تخيلت أنه ينام ولا يستيقظ. أن عربة الأطفال التي ينام بها تنزلق إلى شارع مزدحم لأني نسيت أن أضغط بقدمي على المكابح.
أن يصاب بمرض عضال. أتخيل الألم الصمم. الإنكار. ثم الرغبة العارمة في إعادة الزمن إلى الوراء، واليأس لأن ذلك مستحيل. أرى المخاطر، أتصور سقوطه من أعلى مجسّم اللعب وكسره لعنقه، وأتحمل هذا الإحساس من دون أن أتدخل.
صار لوكا يريد الصلاة في المساء دائمًا. ليتعين علينا أن نركع بجوار فراشه وهو ما يثير حنق ياكوب بشدة. أخبره أنها مجرد مرحلة وستمر إذا تركناه يفعل ما يريد ونتجاهله. لذا صرت أرافقه وحدي كل ليلة أثناء طقوس المساء. وأشاركه اللعبة، أضم كفيّ معًا. لكن اليوم لم أغمض عينيّ. فرأيت لوكا يحرك شفتيه بكلمات دون صوت.

بعد أن قال بصوت عالٍ: "آمين!" وصعد إلى فراشه قلت له: "هل أستطيع سؤالك شيئًا؟ هل الله يعرف كل شيء؟"
حدق لوكا في.
"أم أنك تخبره بما حدث عندما تصلي؟"
قال لوكا: "هو يعرف كل شيء"
"وماذا تقول له إذًا؟"
همس، بجديّة مهيبة : "هذا سرّ".

شعرت فجأة بتعب لا يوصف. أطفأت الضوء ووضعت أنفي على وجنته. أعرفه أكثر من أي إنسان آخر. لكنه يقضي ساعات من يومه بدوني، ويعيش أشياء لا أراها. وكلما كبر، زاد ذلك. وهذا أمر طبيعي. فهو ليس ملكًا لي. بل هو ملك نفسه. ومع ذلك، أتمنى أحيانًا لو كانت هناك كاميرا، مثل تلك المثبتة في بعض السيارات الحديثة، والتي تسجل ما حدث قبل الحادث، لنعود إليها ونعرف من كان المخطئ.

أنفاس لوكا هادئة، لقد غط في النوم. مددت يدي نحو هاتفي على الطاولة الصغيرة. فقد قضيت فترة ما بعد الظهيرة بأكملها أبحث في شبكة الإنترنت: "الأطفال الذين يبدون سلوكًا

غريبًا"، "الأطفال والجنس"، "كيف أجعل الطفل يتحدث". رأسي يغلي. فتحت مجموعة الواتساب الخاصة بأولياء أمور الأطفال في الصف. عدم وجود رسائل طمأنني قليلًا.
لكن الآن عرفت السبب: لقد أبعدوني من المجموعة.

"فليكن إذًا!" هكذا صرخت في الهاتف وأغلقت دون أن أودّع محدثتي. زاد ارتجافي من غضبي.
وتعبير وجه ياكوب المندهش. لم يسمع ما قالته صوفي، سمع فقط جانبي من المحادثة.
كنت أتمنى لو استطعت إلقاء الهاتف على الأرض، أو من النافذة، أو نحو التلفاز الذي تومض شاشته. كان ياكوب قد أغلق الصوت عندما دخلت الغرفة غاضبة، وكان يرفع الهاتف في الهواء لأعلى كأنه دليل. تثبتنا من الأمر-هو أيضًا لم يعد ضمن مجموعة أولياء الأمور. لا يريد ياكوب أن يفهم ما يعنيه ذلك. يظن أن الأمر مجرد سوء تفاهم.
لكني أعلم حقيقة الأمر. يعني هذا أنهم يتحدثون عنا. نحن الأبوين، وعن لوكا، من وراء ظهورنا. وهكذا يبدأ الأمر. لا تساعد محاولات ياكوب للتقليل من أهمية ما يحدث. كانت فكرته أن نتصل بصوفي.
صوفي هي والدة ماتيس. وماتيس هو أقرب أصدقاء لوكا.
هي أم عزباء وألمانية. أحب لهجتها البرلينية وأسلوبها المباشر، أحب الحديث معها.
أحيانًا، وليس كثيرًا، أجرينا محادثات حقيقية، لا مجرد مجاملات.
وأيضًا، لأنها ألمانية، فهي ليست حقًا جزءًا من المجموعة. من باقي أولياء الأمور. ونحن أيضًا لسنا جزءًا منهم. ياكوب لا يمانع، وهذا يريحني. لا نعلن ذلك بصوت عالٍ، لكننا كلانا نعرف، أنني السبب. هناك شيء يفصلني عن الآخرين.

يريد ياكوب أن يعرف ما الذي قالته صوفي. وأنا أحاول أن أروي له كل شيء بأكبر قدر من الدقة .كيف أجابت على المكالمة، وكيف عرفت من نبرة صوتها أنها نسيت للحظة أن هناك مشكلة في المدرسة، وأنها ردّت دون تفكير حين رأت اسمي على الشاشة. كيف حاولت التهوين، لكنها اعترفت في النهاية أن المجموعة كانت تتبادل رسائل يتحدثون فيها عن لوكا. قالت: "لكن لا شيء سيئ حقًا. هم فقط بحاجة إلى التنفيس قليلاً." لم ترد أن تخبرني من هم أولياء الأمور، ولا من هي الفتاة. بل قالت بدلًا من ذلك إن الأمور في هذه المجموعات تشتعل بسرعة. ونصحتني أن أتمالك أعصابي وأنتظر. كم انطوت

نظرتها على تفاؤل بدرجة كبيرة. نظرة بسيطة جدًا. وأنا كنت أود أن أصدقها. بأن لا شيء يجب فعله، وأن المسألة ستمر دون أن تترك أثرًا. لكنها سألتني إن كان ما نُسب إلى لوكا صحيحًا. فأجبت: لا، طبعًا لا.
وطلبت منها أن تخبرني بالتحديد ما الذي كُتب في الدردشة، حتى من دون ذكر أسماء إن لزم الأمر. فقالت إنها مشغولة الآن. طلبت منها لقطات من المحادثات على شاشة.
فسألتني: "بم يفيد ذلك؟" ولم أعرف بماذا أجيب. خيّم الصمت بيننا، أصواتنا قريبة، لكن أجسادنا في عالمين منفصلين حين اقترحتُ أن نأخذ ماتيس مباشرة من المدرسة غدًا، تهرّبت وقالت إن هذا الأسبوع غير مناسب، وهذا وحده دليل على أن الأمر له عواقب، وأنه لن يمر مرور العابر، كعاصفة صيفية قصيرة.

"هؤلاء جميعًا لا يعرفون شيئًا!" كان صوتي عاليًا. "أعمارهم سبع سنوات! كان مجرد لعب! كلنا كنا نلعب مثلهم! إنه طفل وليس متحرش بالأطفال!"
"هل قالت صوفي هذا؟"
"صوفي جبانة... جبانة بحق."
ضمني ياكوب وعانقني. استغربت لحظة، ثم شعرت بالدموع الدافئة تنساب على وجنتَيّ.

من هي الفتاة؟ أفكّر بذلك بهوس. من هن البنات في الصف؟
إيمّا الأولى، إيمّا الثانية، ليزا، سيري، آنا، ألينا، ميلا، كارولينا، إمشه...من بعد؟
يلعب لوكا أكثر مع الصبيان: ماتيس، نائل، أوليفر، فين. يغضبني أنهم أخرجونا من المجموعة، بصمت ودون أن يوجهوا إلينا كلمة. أن لا أحد تجرأ على سؤالنا مباشرة. أنهم يفضّلون الحديث من وراء ظهورنا. هذا ليس فقط ظُلم.
بل هو جبن.

تحرك ياكوب ليقترب مني. نستلقي في السرير، ولا يستطيع أيٌّ منا النوم.
الآن، مدّ يده وأمسك بيدي. رغم أن شجارًا كبيرًا دار بيننا قبل قليل. إنه يواسيني حين أبكي، كأنه ردّ فعل تلقائي لديه. حيث يقبّل الركبة المجروحة، ويجد الكلمات المناسبة، يكون الكتف الذي يُتكأ عليه. يتراجع تمامًا وينصهر في دور المواسي.
استفدتُ من ذلك كثيرًا، مثلًا، عندما كان لوكا في ما يُسمّى مرحلة الاستقلال، وكان يرتمي على الأرض غاضبًا، مغمورًا بمشاعر لا يعرف كيف يعبر عنها، وأعصابي أنا على وشك الانفجار- كان ياكوب هو من يجثو إلى جانبه، ليمتصّ ضرباته الصغيرة، ويهمس مرارًا وتكرارًا:
"كل المشاعر مقبولة، كل المشاعر مقبولة." لأنه كان يتولى الأمر، كنت أستطيع أن أضع يدي على أذني أو أغادر الغرفة. ورغم ذلك، حتى وإن لم يكن ياكوب ينتظر مديحًا، فإن رضاه الذاتي بذلك يزعجني. ياكوب، الثابت كصخرة، والعطوف كدُمية محشوة. لكن من دون وجه حق.

بعد أن انفصلتُ عن حضنه، وتأكد أنني أصبحت بخير، أراد الحديث. ولم يثنه كوني لا أريد الكلام. بدأ يخبرني كيف شعر أثناء المكالمة الهاتفية . قال إنني كنتُ عدائية بالفعل في حديثي مع السيدة بوهله. لا، لم يستخدم هذه الكلمة، بل قال: "غير متعاونة". وهذه كلمة يستخدمها ياكوب .كما قال أنه يظن أنني أبالغ . لكني أعرف ما يعنيه أن يتحدث الناس عنك. وأعرف كم يمكن أن يكون ذلك خطيرًا. لا زلت حانقة عليه.
لا أستحسن ملامسة جسده الدافئ لي، ولا أستحسن حتى رائحته.

سألني صوت ياكوب في الظلام: "كل شيء على ما يرام؟"
أومأت برأسي، رغم أنه لا يستطيع رؤيتي، وقلت: "دورة المياه".

أقف أمام المرآة في الحمّام وأتأمل وجهي. بشرة باهتة، عينان رماديتان. أرى ياكوب في تعابير وجه لوكا. وأرى الآخرين عندما يؤثر الصمت. حين ينام. أرى أبي. أمي. لكن

أكثر من أرى، أرى ليندا. منذ البداية. عندما وضعوا ذلك المولود الصغير على صدري- قبل لحظة كان لا يزال في بطني -خطرت ببالي على الفور :ليندا.

يعتقد ياكوب أن هذا هراء.لا أعلم لماذا يزعجه الأمر، حين أشبّه لوكا بليندا. يقول إنني أنا نفسي أشبه أختي، ولذلك فإن لوكا يشبهني أنا، لا هي. يشترك الحمض النووي بين الأشقاء بنسبة أعلى مما هو عليه بين الآباء وأبنائهم. وهذا أمر جيد إذا احتجنا يومًا إلى متبرع لزرع عضو. لكن القرابة أو الحميمية لا يضمنان ذلك. نادرًا ما يتصل ياكوب بأخته التي تعيش في تيرول. حياتها تشبه حياتنا إلى حدٍّ ما، ومع ذلك تفصل بيننا مسافة.

أشعلت الضوء في غرفة النوم. فغطى ياكوب وجهه بكفيه. الضوء قوي، يزعج حتى عينيّ. لذا أطفأته مجددًا.

وقلت في الظلام: "معذرة." الظلام الآن أكثر حلاكًا من قبل. لكني سمعت ياكوب يعتدل ليجلس. وقال: "لا أستطيع النوم". قلت: "ولا أنا".

"هل نريد أن نتحدث الآن؟"

زحفت تحت الغطاء إلى جانبه، وجلست بقربه.الآن، بات جسده مألوفًا، لم يعد يطالبني بشيء، بل صار يشبه طوق نجاة أتمسك به وسط الظلام.

4

أشعر بقطرة ماء وأرفع نظري نحو قمم الأشجار. أستطيع من خلال سقف الأوراق رؤية السماء مظلمة ملبدة بسحب المطر. ذهبنا إلى الغابة لنلعب. في العادة تظلل علينا الأشجار لتقينا من المطر. الغابة تحمينا. نحن نعرفها جيدًا. يمكننا أن نجد طريقنا حتى لو غادرنا الدرب المألوف. لكن أحيانًا يبدو لي أن شجرتين تبادلتا مواقعهما، أو أن هناك منعطفًا عهدته في مكان آخر تمامًا.

تخبئ الغابة سرًا. سرعان ما يزداد المطر كثافة. الرعد يقرع والبرق يلمع.

فوجئنا بالعاصفة. نتشبث بأيدينا معًا ونركض، نركض كما يركض الأطفال،

مع كل مرة ترتفع فيها أقدامنا عن الأرض، نشعر أننا نستطيع الطيران. لم تعد ليندا قادرة على الاستمرار، لذا حملتها رومي على ظهرها، مع أن ملابسها المبللة ثقيلة كالتي عليّ تمامًا. تتعلق الأخت الصغيرة بالأخت الوسطى مثل القردة، وأنا الأخت الكبرى أتقدم، لأستطلع لنا الطريق عبر المطر الغزير. لكن رومي لم تقوى على التحمل أكثر. وتعثرت بجذر شجرة وسقطت. أصبح المطر في غضون ذلك غزيرًا جدًا والأوراق لم تعد تحمي من المطر. برق! واحد وعشرون، اثنان وعشرون... رعد! اقتربت العاصفة كثيرًا. قلت: "تفادى البلوط ، وابحث عن الزان." لكننا لا نعرف كيف يبدو الزان، يمكننا فقط تمييزه من ثمرته. لذلك لجأنا تحت شجرة صنوبر، فغصونها ليست كثيفة جدًا لتصل إلى الأرض. نجلس معًا ونحن نرتعد،

مبللين حتى العظم، أنظر إلى ليندا، ولا أدري إن كانت الدموع على وجهها أم مجرد قطرات مطر. قلت لها: "لا تخافي، لن يحدث لنا شيء هنا." فأجابت: "أنا أعلم." سألت رومي: "لماذا؟"

فقالت ليندا: «نحن الثلاثة واحد. "

أستيقظ وأنا أشعر بالضياع كما لو أن الأرض قد انتُزعت من تحت قدميّ. أمد يدي لكأس الماء على طاولة السرير، وأرتشف جرعة كبيرة. يخبرني الهاتف أن الساعة السادسة والنصف عادةً ما يرن المنبه الآن، لكننا قررنا بالأمس أن يبقى لوكا في المنزل اليوم. لا يعطي ياكوب دروس الطبل قبل الظهيرة أبدًا، وأنا أخبرت السيد إدوارد الليلة الماضية أنني سأصل متأخرة. مع ذلك نهضت من نومي. القدم اليمنى، القدم اليسرى. لستُ مؤمنة بالخرافات، لكنني أحرص على هذه التفاصيل الصغيرة منذ أن كنت طفلة. لا ضرر في الأمر إذا لم يجد نفعًا.

أسمع ياكوب يقلب جسده في السرير، يلتف إلى الجانب الآخر. أنا من أصحب لوكا وأنا في طريقي إلى العمل صباحًا. وأحب الوقت الذي أقضيه معه وحدنا. هدوء المنزل في الصباح. نحكي أحلامنا لبعضنا بعض بينما نتناول عصيدة الشوفان في الخريف، ونغترف من بودينغ الشيا في الربيع. يحلم لوكا بقدر ما أحلم أنا. يمكن للمرء أن يتعلم كيف يحلم وكيف يتذكر أحلامه، عبر حكيها لنفسه. ليست كلها أحلام جميلة، هناك أحلام تستيقظ منها متعرقًا أو حتى باكيًا. لكنني أتوق لتلك الآن، لأن المشاعر فيها قوية، ومع ذلك بلا عواقب. لذلك لطالما أحببت دومًا أفلام الرعب لنفس السبب.

أفتح باب غرفة لوكا ببطء ، إذ أريد أن ألقي نظرة على طفلي النائم. لكن لوكا ليس في سريره. أسرع نحوه وألقي الغطاء على جنب. بقعة مبللة على الملاءة.

شبح يجلس على الأريكة في غرفة الجلوس، قد لف الغطاء الصوفي الأبيض فوق رأسه، ولا يتحرك. كما لو أنني لن أراه إذا لم يتحرك. أجلس بجانبه، أحاول رفع الغطاء، لكنه يمسك به بقوة.

فأجلس صامتة بجانب الشبح أسمع أنفاسه، وأخيرًا أشعر بيده تلمس يدي. أضغط على يده الشبحية ويتركني الشبح أخيرًا للدخول إليه. يتسلل الضوء من خلال شقوق القماش المنسوج، ويرسم نمطًا على وجهه.هذا ليس مجرد غطاء، إنه مخبأ. لقد سمح لي بالدخول. عيون لوكا واسعة وحزينة، لأنه فعل شيئًا خاطئًا مرة أخرى.

يقول: "ماما"، فأترك الغطاء الذي كنت أحمله بيدي، وألف ذراعي حوله.

أقول: "ليس بالأمر الخطير"، وأعني أكثر من مجرد الملاءة المبللة. لا أعرف لماذا، لكنني أصدق نفسي، وأشعر بالراحة، كالغطاء الذي يلفنا معًا.

أفكر، ما إذا كان هذا هو الوقت المناسب.

في الليل اتفقت أنا وياكوب أن نتحدث معه. بعد الإفطار. ليس الآن.

تحدثنا أيضًا عن الطريقة التي سنتحدث بها مع لوكا :لن نلومه، لن نوجه له اتهامات، ولن نضع كلمات في فمه ونملي عليه ما يقول. نريد سماع قصته. وكون الأطفال يستكشفون أجسادهم في وقت ما، فإنه أمر طبيعي. لا نريد أن يشعر بالخجل. المقلق حقًا هو أنه يُقال إنه أجبر الفتاة. سنشرح له أن الفضول الجنسي أمر طبيعي، لكن يجب أن يكون مبنيًا على الموافقة.

تلك هي النظرية فقط.

بعد الإفطار تبادلنا أنا وياكوب نظرة طويلة. بينما انشغل لوكا بجمع بقايا الحبوب ليلتقطها بملعقته. لا يريد أي منا أن يبدأ الحديث. تخوض عيوننا نزال ملاكمة صامتًا. حتى استسلم ياكوب أخيرًا. قال: "حسنًا يا صاحبي" ورأيت أن هذا خطأ. لأنه لا يستخدم كلمة "يا صاحبي" عادةً.

"أنت تعلم أنه لا يوجد أي شيء لا يمكنك أن تخبرنا به." أومأ لوكا برأسه بخفة، لكن نظره انخفض إلى الأسفل."السيدة بوهله أخبرتنا بما حدث؟"

"ما تعتقد أنه حدث".لم أستطع إلا أن أقطع كلام ياكوب.

سأل لوكا بخجل: « ألهذا السبب لم أذهب إلى المدرسة اليوم؟«

نظرنا أنا وياكوب لبعضنا البعض.

قلت: "هذا لكي نستطيع التحدث عن الأمر، بهدوء تام.«

كان سيكون من السهل أن نقول له:"عليك أن تفتح فمك وتتحدث حتى يسمحوا لك بالعودة

إلى المدرسة". لكننا لا نربيه هكذا. لذا تابعت مبتسمة بينما أصب لنفسي بعض القهوة، بشكل عابر وبريء:"لكي نقضي بعض الوقت معًا كأسرة".

ثم سألته: "فما الذي حدث فعلاً؟" ضم لوكا شفتيه لأسفل غاضبًا.

سأل ياكوب: «هل تخاف من أننا سنوجه لك اللوم ونغضب؟«

قلت: "هذه ليست مزحة. يجب أن تتحدث إلينا حتى نستطيع – **حمايتك**- التعامل مع الأمر."

جلس لوكا ساكنًا، دون أن يحرك ساكنًا.

جرب ياكوب طريقة أخرى: "أنت و... الفتاة، بقيتما في الصف أثناء الاستراحة. ماذا كنتما تريدان أن تفعلا؟ هل أردت تقبيلها؟"

تعيّن على لوكا فقط أن يلتقط الخيط ويكمل الحديث. أي كان ما سيقوله، كنت أفضل ذلك من هذا الصمت. كيف خطرت له الفكرة؟ هل كان مجرد مزاح أم أن هناك شيء أكثر؟

لا يمكننا أن نقبل رواية الآخرين فقط، أنا بحاجة إلى قصته هو . ابتسم ياكوب بشجاعة في وجه جدار صمت لوكا. نحن الاثنان أمام طفلنا، وكأنه تحقيق. من الطبيعي أن يكون ذلك مخيفًا. لماذا لم أستمر في سؤاله أكثر تحت الغطاء قبل قليل؟

جرب ياكوب مرة أخرى: "من الطبيعي أن تكون فضوليًا. اللمسات شيء جميل"

ما هذا الهراء قلت: "ليس كل اللمسات جميلة". هذا هو جوهر المشكلة!

قال ياكوب: "لوكا، ما أعنيه هو أنك لا يجب أن تفرض لمسات على الآخرين.عليك دائمًا أن تسأل أولًا، ويجب أن يوافق الطرفان.«

في أكتاف لوكا المنكمشة، في وضعية الحماية تلك ، يكمن أيضًا فخر أعرفه جيدًا عن نفسي.

قلت: "أنت تزيد الأمور سوءًا فقط إذا لم تتحدث". بدأ ذقن لوكا يرتجف.

قال ياكوب: "لقد فعلت شيئًا"، وأمسك لحظة تلاقي بصره ببصر لوكا. حتى تحول الارتجاف إلى إيماءة رأسه بالموافقة.

6

أنا وحدي في الشقة. فقد ذهب ياكوب ليلعب كرة القدم مع لوكا في الحديقة الصغيرة قرب ناصية البيت. لم أتمكن من الحصول على أكثر من هذه الرعشة منه. هل يكفي ذلك كاعتراف بالذنب؟ مع مرور الوقت أصبحت أكثر حذرًا. في ساحة اللعب بدأ طفل يبكي بجانب لوكا فقال: "لم يكن عن قصد." لاحقاً اكتشفنا أن الطفل داس على نحلة بقدمه.
نستلقي معًا على السرير وأقبل بطنه وهو يقبلني بالمقابل، شفتاه الناعمتان على جلدي حتى يعضني. ارتعشت من الصدمة وأدركت حينها أنني كنت قد احتجزته بمرفقي. ذهبت لأخذ لوكا من الحضانة وقال لي أن المديرة تريد التحدث معي. كان صوته مختلفًا، شبه غريب. يفعل ذلك أيضًا أثناء اللعب، لكل لعبة صوتها الخاص. هذا الصوت لم أعرفه بعد، كان قصير النفس ويخترقني. أمسكت يده لكنه لم يخبرني ما الذي حدث. عندما أخبرتني المديرة أنه كسر لعبة، شعرت فقط بالارتياح لأنه لم يتعرض طفل آخر للأذى.

أنا أعلم أن الأطفال يجب أن يتعلموا فقط كيف يتعاملون مع مشاعرهم. أعلم أنه من الطبيعي لطفل صغير أن يغمره الغضب أو الخجل، أن يعض أو يضرب أو يخدش. هم لا يفعلون ذلك بنية الشر، بل لأن المشاعر تغمرهم كالأمواج التي تجرف كل شيء. لهذا السبب كنت أقدم عروضًا للوكا: "انفجر البالون - هل جعلك ذلك حزينًا، غاضبًا أم هل فزعت من الصوت؟" من شأن هذا أن يساعد الأطفال على التعرف على مشاعرهم، لكني لم أكن متأكدة أبدًا ما إذا كنت أقنعته بهذه المشاعر، أو إذا كان يختار شعورا فقط لإرضائي.
تطن جملة جاكوب: "لقد فعلت شيئاً" في رأسي كأغنية عالقة. إيماءة لوكا بالرأس. أتعلق بهذه الصورة وأتأملها من زوايا مختلفة. إنها بمثابة الإجابة على إحساس شعرت به منذ زمن طويل. كأنني توقعت أن شيئًا سيحدث عاجلاً أم آجلاً. والآن حدث، ولكني غير مستعدة له. أو ربما كان الأمر مثل حادثة النحلة آنذاك.

أشرب بقايا قهوتي الباردة. يقشعر جسدي من الاشمئزاز. أجمع الأكواب وأحملها إلى الحوض. أمسح بفوطة مبللة سطح المطبخ والطاولة. الأثاث في شقتنا مختار بعناية، قطع محببة مستخدمة، مع أرضية المطبخ المصنوعة من اللينوليوم ذي المربعات الأبيض والأسود. يبدو الأمر كما لو أننا نعيش في بيت دمى. وهذا بسبب الأسقف المنخفضة في بنايتنا التي تعود لخمسينيات القرن الماضي. عندما انتقلنا إلى هنا، وكنت في الشهر السابع من حملي، كان من المفترض أن تكون حلاً مؤقتاً فقط. وليس المال وحده هو السبب في بقائنا هنا بعد سبع سنوات ونصف، بل أيضًا لأن صندوق الأحذية الملون هذا أصبح عزيز على قلوبنا. استقرينا في حالة عدم اليقين، هناك مثلاً الخزانة التركية الثقيلة المزينة بالزهور المرسومة، قطعة أثاث قديمة ريفية وقعت في حبها على الفور، رغم أن الشقة صغيرة جدًا عليها. ها هي الآن تبرز بشكل غير مريح في الغرفة، كما تتفادى أفخاذنا المرور بها عندما ننتقل من المطبخ إلى غرفة المعيشة. يظل الخطاف المهتز في المدخل فارغًا. والنافذة المشوهة في مخزن الطعام لا تُفتح أبداً. هذه الشقة أكثر من مجرد منزل، إنها البيت الوحيد الذي يعرفه لوكا، أكثر مما كان المنزل الكبير في الغابة أو السكن المشترك في فيينا.

عندما أردت الذهاب إلى الحمام، تذكرت الملاءة المبللة. لوكا تبول في السرير. بعث في هذا الطمأنينة بطريقة غريبة. لأن حتى لو غابت الكلمات، فهناك رد فعل. ذات مرة وضعت لوكا في حوض الاستحمام. كنت متوترة وأفكاري كانت تدور حول شيء آخر. عندما أردت أن أغسل شعره، أدركت كم كان الماء ساخنًا. بعد ذلك لم يرغب في ارتداء الجوارب لعشرة أيام. لم يكن هذا حادثاً منفرداً. مع الممارسة أصبحت أستطيع ربط التأثير بالسبب.

ذهبت إلى غرفته وخلعت الملاءة من السرير كما كانت تفعل أمي. بحركات أنيقة وكبيرة، ذراعيّ ممدودتان، هززت غطاء السرير فوق الغطاء، كأنها رقصة مع القماش. كانت رومي تتبول في السرير أيضًا. لفترة طويلة. كثيرًا حتى وضعت لها أمي وسادة تحت الملاءة، كانت تصدر صوتاً عندما تتحرك رومي في الليل. عندما كنت أسمع ذلك، كنت أعلم أنها مستيقظة، لكني لم أقل شيئاً، لأنني لم أرد أن تأتي إليّ وربما تبول على سريري.

حدث ذلك مرات قليلة. ذلك الشعور عندما تنتشر الحرارة الرطبة تحت الفخذين والمؤخرة. الرائحة.

أنظر إلى الملاءة بين يديّ. أشمّها. لا أشمّ شيئًا. لا يوجد عليها أي بقعة، ولا حتى حافة صفراء باهتة ومهترئة، ولا على الفراش أيضًا. على الطاولة الصغيرة بجانب السرير يوجد كوب ماء فارغ. كل مساء أضع كوب ماء بجانب سرير لوكا، على أمل أن يشرب أكثر.

أرفع الفراش، وأخذ الغطاء وأعلّقه على درابزين الشرفة لتهويته. مع أن ذلك ليس ضروريًا، لأنه لا توجد رائحة كريهة. ثم، أخيرًا، أرتدي ملابسي.